أعلام البيـــــان

فى عصر اسمـــاعيل (١)

للأستاذ عمر الدسوقى

تمهيد :

كانت نهضة محمد على علمية حربية صناعية ، ولم يكن فى حاجة للادب ، ولذلك لم يلتفت إليه أية التفاتة ، وإنما كان فى حاجة لجيش قوى يؤيد عرشه . ويؤسس دولته . وكان كل شىء فى مصر مسخراً لهذا الجيش ، وكل البعثات من طبية وعلمية وصناعية وغيرها إنما قصد بها خدمة الجيش ورجاله .

ومع ذلك فقد كانت هذه النهضة الحربية أساساً للنهضة العلمية الأدبية التى ظهرت فى عهد اسماعيل ، فالمدارس التى فتحها محمد على ، والبعثات التى تزودت من علوم أوربا واطلعت على حضارتها ، والكتب التى ترجمت أسهمت كلها فى النهضة التالية ، وساعدت على نجاحها ، فلم يكن كبار المفكرين وقادة الرأى والاصلاح فى عهد اسماعيل إلا شبانا فى عهد محمد على ، ولقد أفادوا مصر أكبر فائدة فيما بعد ، وفى طليعتهم رفاعة الطهطاوى ومحمد على البقلى ، واسماعيل الفلكى ، وعلى مبارك . إن محمد على وإن لم يهتم بالأدب إلا أنه مهد السبيل لإعلائه بإحيائه الجامعة العربية ، واللغة العربية ، والأزياء العربية إذ كان يكره من يدخل فى خدمته من الأجانب أن يتزيوا بالزى العربى ، ويتكلموا اللغة العربية ويؤلفوا فيها أو ينقلوا كتبهم إليها ، ويحتم على رجال البعثات الذين أتموا تعليمهم أن يؤلفوا أو يترجموا فى الفنون والعلوم التى تخصصوا فيها ، ويقدموا

---

(١) محاضرة القيت فى نادى دار العلوم يوم الاثنين ٢ من يوليه سنة ١٩٤٥

إليه ثمرة عملهم فكان هذا أول بعث للغة العربية بعد أن كانت مقبورة مطمورة على يد الاتراك .

ثم كانت فترة ركود فى عهد عباس وسعيد كادت تعصف بهذا الغرس الطيب الذى وضع فى أرض خصبة قوية ، إلا أن الحظ وانى الأمة العربية فلم تطل تلك الفترة وشفيت مصر من النكسة ، وجاء اسماعيل العظيم فكان عهده الصبح الذى بزغت فيه شمس الآداب العربية التى تتمتع اليوم بضوئها الساطع ، وحرارتها القوية وأشعتها السابغة ، وما تضفيه على عقولنا من خيرات وبركات أوشكت أن تربى على ماتمتع به أسلافنا فى العصر العباسى .

إن ماقدمه اسماعيل من خدمات جليلة للغة العربية وآدابها غنى عن البيان والتعريف وحسبنا أن نذكر دار الكتب ، ودار العلوم ، ومئات المدارس ، والبعثات المتعددة التى جدد إرسالها ، والمطابع التى أخذت تحيى آثار السلف ، وتشجع انتاج الأدباء والمعاصرين ، والصحف العديدة التى عملت على نشر الثقافة وإيقاظ العقول ، ثم تشجيعه رجال الأدب والعلم ، وتقريبهم منه . وكم كنت أود أن يتسع لى الوقت فأخوض فى كل هذا بشىء من التفصيل ، كى ندرك إلى أى مدى نحن مدينون فى نهضتنا العلمية والأدبية الحالية إلى مابذل فى عصر اسماعيل ، ولكن هذا يحتاج إلى أكثر من محاضرة ، وبحثى اليوم حول أعلام البيان فى عصر اسماعيل .

سارت النهضة الأدبية سيراً طبيعيا متدرجة من التقليد إلى شىء كثير من التجديد وبذلك تميز فى عصر اسماعيل مدرستان أدبيتان : الأولى مدرسة المقلدين ، والأخرى مدرسة المجددين .

مدرسة المقلدين :

كان من آثار النهضة التى ابتدأها محمد على وواصلها اسماعيل أن وجدت بمصر دواوين شتى بعضها للحكم والسياسة ، وبعضها للكتابة والتعليم ، وكان من الطبيعى أن يلتفت الادباء الذين أخذوا يلتمسون المناصب ويرتزقون بأقلامهم إلى الوراء لعلهم يجدون من يكون لهم نموذجا يحتذونه ، فرأوا فجوة كبيرة تقطعت فيها أسباب اللغة العربية وضعفت وانحلت ، وحلت محلها اللغة التركية فى الدواوين ، ومن تجرأ على

الكتابة بها لم يسلم من اللحن الفاحش، ولم يعد فى استطاعته أن يأتى بالمفهوم المقبول بل أغرق فى البديع حتى استغلق مايكتب ، وأتى بالغث السمج الذى إن حسن فيه شىء كان سرقة واغتصاباً ممن سبقه ، ثم مدوا طرفهم إلى أبعد من هذا العهد المظلم، إذ لم يجدوا فيه غناء ، فوجدوا طلبتهم فى مأثورات القاهرة إبان عهد صلاح الدين وخلفائه من ملوك الدولة الايوبية ، وأصبح القاضى الفاضل وابن مطروح ، وبهاء الدين زهير، والشاب الظريف قدوة موموقة لكل أديب يتطلع إلى رئاسة الانشاء فى الديوان أو ينشد الحظوة والقربى من أمير البلاد أو كبار الاعيان فيسلك بين الندمان .

عكف هؤلاء الادباء على آثار العهد الايوبى يدرسونه ويقلدونه فطولوا أيام البقاء لهذه المدرسة القديمة التى اختفت فيها شخصية الاديب وتوارت انفعالات نفسه وأحاسيسها تحت ركام كثيف من الصنعة ، والتزلف ، والتقليد .

كان الادب فى هذه المدرسة عبداً للملوك والامراء ، والاعيان والكبراء يشيد بأعمالهم ويخلد مآثرهم ويدخل السرور على نفوسهم ، ويثنى عليهم فى كل مناسبة سواء كانوا عادلين مصلحين أو بطاشين مفسدين ، فكل حاكم سيد الوجود فى زمانه آت بالمعجزات فى أعماله معصوم من الخطأ فيما يأتى به ، يبتز مال الناس غصباً فلا يلام على ماغصب بل يمدح على ماأنفق ؛ والاديب الكبير مداح للامير الكبير ، وهجاء لاعدائه وشانئيه ؛ والاديب الصغير مداح للغنى الصغير يتملقه ويتغنى بفضله وينهش أعداءه .

لم يكن للاديب فى هذه المدرسة هم إلا إرضاء سيده ومن تعلق بسببه ، فيزف إليه المدائح فى كل مناسبة بل وفى غير مناسبة ، فأعياده وأفراحه ، وسفره ، وقدومه ومنشآته كلها فرص للنظم وتقديم المدح والثناء ، ولقد رأيتم نموذجا لهذه المدرسة فى محاضرة الاستاذ الجليل السباعى بيومى عن السيد على أبى النصر .

تتبع أدباء هذه المدرسة ماشاع بين أدباء الدولة الايوبية من أغراض النظم والنثر التى كانت محببة إلى سراة القاهرة، ولا تزال عالقة بالاذهان من ذياك العهد حتى عصر اسماعيل، وأخذوا يقولون فى هذه الاغراض تكلفا وتقليدا ، فالطرائف المنظومة

وحل الالغاز ووصف البساتين والنفائس والرياض ، والغزل المصطنع ، والمرح والاستعطاف والاعتذار ، والشكر صارت كلها عنوانا اظرف الاديب . وسمت الكاتب والناظم وشارة النديم المصاحب للملوك والامراء .

وكما قلدوا أدباء العهد الايوبى فى الدوافع التى من أجلها تنظم القصيدة وتديج الرسالة ، وفى الأغراض التى ينشىء فيها الكاتب وينشد الشاعر ، قلدوهم كذلك فى القالب الذى يعبرون فيه عن هذه الاغراض فاحتفوا بالجناس والتورية والالغاز ، والتواريخ ، والسجع ، لان هذا النوع من الادب كان الادب المختار عند أمثال القاضى الفاضل وابن مطروح .

ومن ذلك نرى أن أدباء هذه المدرسة لم تكن لهم شخصية ما وأنهم لم يكونوا أحراراً فيما يقولون أو يكتبون أو ينشدون ، ولا فى الصيغ التى بها يفصحون ويعبرون ولم يكن لحبهم وبغضهم ، وشعورهم الشخصى أى قيمة ، لأنهم كانوا مسخرين لغيرهم ولم يكونوا ملكا لانفسهم .

وأدباء هذه المدرسة نوعان :

(ا) أدباء الدواوين

(ب) والندماء

أما أدباء الدواوين فخير نموذج لهم ، وأصحهم لغة رأيرعهم تركيبا وأسلمهم فهما وتفكيرا وأعلاهم صيتا وجهارة شأن فهو عبد الله باشا فكرى . وهو يعطيك صورة واضحة للوزراء الكتاب فى أخريات الدولة العباسية والدولة الايوبية ، وقد اتخذ له خاتما رقم عليه الآية : « إنى عبد الله آتانى الكتاب » لأن جملة حروفها توافق سنة ميلاده بحروف الجمل . وقد كان اتخاذ أمثال هذه الخواتم من شارات الكتاب ، وذوى المناصب الوزارية فى أيام العباسيين ومن حذا حذوهم من الفاطميين والايوبيين . وكان مثلهم ينظم الشعر ويكتب الرسائل ، ويتولى التعليم وإدارة المدارس

ولد بالحجاز (١) من أب مصرى ، وأم من المورة ، ومات أبوه وهو صغير فكفله بعض أعمامه ودخل الازهر وتعلم العلوم الشائعة فى عهده من لغة وفقه وحديث

(١) ولد فى سنة ١٢٥٠ هـ ١٨٣٤ م وكان أبوه محمد مرافقا فى الحجاز للجنود المصرية

وتفسير وعقائد ، واعتنى باللغة التركية حتى اتقنها لأنه كان ينشد وظيفة فى الدولة وقد وظف وهو دون العشرين، وما زال يترقى فى أعمال الترجمة حتى بلغ من شأنه أن يصاحب الخديو إسماعيل عند سفره إلى الاستانة (١) ، لإستكمال الرسوم من تقليد الولاية وأداء الشكر لآل عثمان ، ثم نذبه الخديو لملاحظة الدروس الشرقية التى كان يتعلمها انجاله الامراء توفيق وحسين وحسن ومعهم الامير ابراهيم أحمد والامير طوسون سعيد فهو من الديوانيين بالتربية والنشأة والصناعة .

فكان يضع التواريخ بحروف الجمل فى مطالع القصائد وخواتيمها فقال فى فتح « سباستبول » وكل مصراع من مطلع القصيدة تاريخ للسنة .

لقد جاء نصر الله وانشرح القلب لأن بفتح القرم هان لنا الصعب

وقال مؤرخا زواج الامير حسين كامل :

أرخ لنحو حسين تزف عين الحياة

وكان يكثر من الجناس فقال فى مدح « إسكار » ملك السويد حين سافر إليها لحضور مؤتمر المستشرقين سنة ١٨٨٨ .

وتلا به « اسكار » رب سريره قولا به لذوى النهى إسكار

وقال فى مليح رآه أول الشهر :

وبدر تبدى شاهرا سيف جفنه فروع أهل الحب من ذلك الشهر
وليلة أبصرنا هلال جبينه علمنا يقينا أنها غرة الشهر

وكان يصف الآنية والازهار ويشبه بالنفائس على طريقة الظرفاء المقتدى بهم فى عصر الايوبيين خلال المنادمات والمطارحات كما قال فى نار موقدة فى فحم حوله رماد .

كأنما الفحم ما بين الرماد وقد أذكت به الريح وهنا ساطع اللهب
أرض من المسك كافور جوانبها يموج من فوقها بحر من الذهب

وقال فى الورد :

كأن وردا لاح فى كمه يزهو بثوبى خضرة واحمرار

(٢) كان ذلك فى سنه ١٨٦١ م

ياقوتة فى سندس أخضر أو وجنة خط عليها العذار

ونجد حكمه لاتشبه تلك التى كانت ترد عفواً أو نتيجة القريحة الصافية، والطبع الفنان فى شعر الجاهليين والمخضرمين ، ولكنها تشبه حكم الاباء المجربين ، والعلماء الواعظين والمعلمين المؤدبين فمن ذلك قوله :

إذا رمت المروءة والمعالى وأن تلقى إله العرش براً
فلا تقرب لدى الخلوات سرا من الأفعال ما تخشاه جهرا

ومن ذلك قصيدته المشهورة .

إذا نام غر فى دجى الليل فاسهر وقم للمعالى والعوالى وشمر
وسارع إلى مارمت مادمت قادرا عليه وإن لم تبصر النجح فاصبر

وهذه لعمرى نصائح معلم لا وحى شاعر

وربما كانت قصيدته الرائية التى أرسلها إلى الخديو توفيق بعد أن اتهمه بالاشتراك فى الثورة العرابية، وحبسه وقطع معاشه من خير ماقال، ولكنها تحتوى على معان تخطر لكل من يعتذر وليس فيها جديد إذ لم يزد عليها من وحى الشاعرية ما يمتاز به طبع الفنان ولهجته فى التعبير ومنها يقول :

مليكى ومولاى العزيز وسيدى ومن أرتجى آلاء معروفه العمرا
لئن كان أقوام على تقولوا بأمر فقد جاءوا بمازوروا نكرا
فما كان لى فى الشر باع ولا يد ولا كنت من يبغى مدى عمره الشرا
فعفوا أبا العباس لا زلت قادرا على الأمن إن العفو من قادر أحرى
وحسبى ما قد مر من ضنك أشهر تجرعت فيها الصبر أطعمه مرا
يعادل منها الشهر فى الطول حقبة ويعدل منها اليوم فى طوله شهرا
أيجمل فى دين المروءة أننى أكابد فى أيامك البؤس ، والضرا

ونلاحظ فى هذه القطعة أن فيها شيئا من الحرارة والعاطفة ، لأنه متألم ، ولذلك جاءت محررة من القيود ، قريبة من أدب الطبع وإن كان طبع الذليل المستعطف .

ولعبد الله فكرى بعض قطع يستروح منها الناقد نفحة الشاعرية ، وذلك حين

يطلق النفس على سجيتها ، ويتحرر من هذه القيود اللفظية والأغراض التقليدية ، ولعل أجملها ما قاله فى المجون :

وهيفاء من آل الفرنج حجابها ... على طالبي معروفها فى الهوى سهل
تعلقتهـا لا فى هواها مراقب ... يخاف . ولا فيهـا على عاشق بخل
إذا أبصرت من ضرب باريز قطعة ... من الأصفر الأبريز زلت بها النعل
فلما تعارضنا الحديث تعرضت ... لوصل ، ومن أمثالها يطلب الوصل
فرحت بها فى حيث لا عين عائن ... ترانا ، ولا بعل هناك ، ولا أصل
وبت وفى سكران من خمر لحظها ... وراح ثنايا ها ، ومن خدها نقل
وقمت ولم أعلم بما تحت ذيلها ... وإن كان شيطانى له بيننا دخل

فهذه القطعة تفصح عن احساس الشاعر المسلم ، وما تمليه عاداته عليه ، وما ينم على ضميره فى أمثال هذه المواقف إذا ترك نفسه على سجيتها بلا محاكاة ولا تكلف ولذلك وضحت عليها الملامح النفسية .

أما نثره فكان له فى أسلوبان : أحدهما مرسل يكتب به فى الشؤون العملية والتقريرات العلمية فتغلب فيه ملاحظة المعنى وتقل فيه الأسجاع والفواصل ، ومثاله ما كتبه من جوتمبرج الى الوزير رياض باشا بما شهده فى مؤتمر المستشرقين اذ يقول :

« ثم أشير الى فقمت وأنشدت قصيدة كنت أعددتها لذلك بعد ارتحالنا من باريس ، فأتممتها فى الطريق وبيضتها فى أستكهلم فابتدأت أقول :

اليوم أسفر للعلوم نهار ... وبدت لشمس نهارها أنوار

ومضيت فيها الى آخرها ، وصفق الناس لكل من خطب وبالجملة لى لما أتممت الانشاد ، وخاطبنى أناس منهم باستحسانها فى اليوم ، وحضر كاتب المؤتمر على أثر الفراغ منها ، وسارنى بطلب نسختها فأخذها فى الحفلة »

والأسلوب الآخر هو الذى يحتفى بتزويقه وتنميقه ويقلد فيه مدرسة القاضى الفاضل فلا تفوته سجعة واحده ، ويكثر من الالغاز على طريقة المقامات ومثال ذلك ما كتبه الى أحد أصحابه :

« كتبت والذهن فاتر ، من وهن الدفاتر ، والتبييض والتسويد ، والتقييد والتسديد ، والترجمة وكثرتها . والهمة وفترتها ، والماهية وقلتها ، والنفس وذلتها ، وراتبي لا يكفي أجرة البيت ، ولا يفي ثمن الماء والزيت ، وبالأمس وعد الوكيل بالزيادة واعتذر اليوم بالاصيل على العادة »

وقد خلف عبد الله باشا فكري بعض الآثار الادبية مثل « نظم اللآل في الحكم والأمثال » ، والمقامات الفكرية في المملكة الباطنية » و « الفوائد الفكرية للمكاتب المصرية »

وله شرح على ديوان حسان بن ثابت لم يتمه . وله كتاب « ارشاد الالبا الى محاسن أوربا » .

وقد مات دون أن يتمه فأنجزه ابنه أمين باشا فكري كما جمع كثيرا من كتاباته وقصائده في كتاب دعاه « الاثار الفكرية »

أما النوع الثاني من مدرسة المقلدين فهم الندماء ، وقد تقدم لحضراتكم نموذج منهم من فوق هذه المنصة في شخصية السيد علي أبي النصر

والمنادمة أيها السادة فن صعب ، يحتاج الى عدة صناعات ، فقد يكفي العالم علمه والوزير تدبيره ، والقائد بأسه وخبرته ، والشاعر نظمه وإنشاده ، أما النديم فلابد له من العلم في حين ، ومن الرأي في حين ومن اللهو والفكاهة في حين آخر ، ومن الكياسة والظرف في جميع الأحيان . وإذا استغنى النديم عن العلم في العصور التي يجمد فيها العلم أو يتلبس بوقار الدين فان يستغني في جميع الحالات عن القطنة والحذق والنفاذ الى طبائع النفوس وسرعة البديهة في استطلاع أحوال الرضا والغضب والتبسط والانقباض والاحتيال على الترفيه والتسرية ، وعرض المطالب في أوقاتها والايماء بالاشارة الناضجة في مناسباتها ، والتلطف في أحاديث الجد والشدة حين تلجيء الضرورة اليها ، وحفظ الكرامة مع هذا كله حفظا للمنزلة واستيفاء للمنادمة .

ثم إن الأضحاك ليس بالشيء الميسر للنديم في جميع أحواله ، فقد يفتر طبعه ، أو يخبو ذهنه في ساعة من الساعات ، وقد يفهم النكتة على وجه لا يفهمه سامعوه ،

فلا غنى له إذاً عن رياضة الناس على سماع نكاته واستحسانها وإن سخفت ونبت بها بعض الأذواق.

فالمنادمة — على لطفها ورقتها — صناعة عسيرة شاقة لايحذقها النديم، ولا يبرع فيها الا بعد مران طويل، ورياضة عصية.

وقد كان عظماء مصر وأعيانها، وأمراؤها فى القرن الماضى يتشبهون فى مظاهرهم بعظماء العصور السالفة، ويودون أن يروا أنفسهم فى حال تشبه تلك الحال القديمة وحاشية تماثل تلك الحاشية ومجالس تحيى مجالس الأمارة التى يسمعون بها أو يقرؤون عنها.

ولذلك كانوا يعقدون فى بيوتهم وقصورهم مجالس يختلف اليها العالم والشاعر والنديم وطالب الحاجـــة، ومن يبغى الجاه والشهرة والتعلق بأذيال العظماء، وينصتون فيها الى النكات المتبادلة بين الحاضرين والنوادر المروية عن الملوك الغابرين والحكام والسروات السالفين، والمطارحات والمساجلات الأدبية التى تجرى بين الشعراء والأدباء على حد ماكان معروفا فى مجالس الخلفاء والأمراء فى العصر العباسى والعصور التالية له. ووجد الندماء من يشجعهم ويعنى بهم ويغدق عليهم النعم؛ ويمد لهم أسباب الجاه والثروة وقضاء الحاجات، فعملوا على إتقان فنهم وكثر التنافس بينهم ومن هنا نشأ أدب المنادمة.

على أن هذا الأدب لم يختلف فى أغراضه، والثوب الذى ظهر فيه، والدوافع التى أدت اليه عن مثله فى عصر الأيوبيين والفاطميين إلا بمقدار ما تختلف بديهة عن بديهة، ومقدرة عن مقدرة فى سياق النكتة ونظم اللغز، وحبك التاريخ، والاجادة فى المناسبة.

ومن أشهر هؤلاء الندماء فى عصر اسماعيل السيد على الليثى فكان يجيد شعر المناسبات من تسجيل فكاهة أو تهنئة أو تعزية أو مواساة أو مديح، ولم يكن الشعر الغرض المقصود بالاتقان والأحكام عنده أو عند سامعيه، وإنما هو شاعر لأنه نديم. وقد نال الحظوة لدى الخديو اسماعيل، وصحبه فى سفره إلى الاستانة

سنة ١٢٩٠ هـ ١٨٦١ م وكان الأدباء يتسابقون إلى مطارحة الليثى ويتفاخرون بمكانته .

ومن شعره يرثى محمود باشا الفلكى :

أرى النيازك عن سام من الفلك مذعورة أصبحت تصبو إلى الدرك
كالطير فاجأها البازى وأذهلها لما كت البرق وانقضت عن الحبك

ويقول فى آخرها

الصبر يا نفس واستبقى مناحــه أو فالتصبر إن تبغى الهدى فلك
حل القضاء وناعى المجد أرخنا قد مات محمود باشا المسند الفلكى

١٣٠٣ هـ

وكثيرا ما يطلب الى النديم أن يسارع الى القول فيما يقع بين يدى مولاه من الطرائف والنوادر ، وأن يثبت ارتجاله بإثبات المناسبات كلها واحصاء الاسماء والوقائع التى تنفى الاستعارة والاقتباس . ومن أمثلة ذلك أن كبيراً من الكبراء كان يفرغ تفاحة فى يده بالمدية ليشرب فيها فانقصفت المدية فى أثناء ذلك، فنظر الكبير الى الشيخ الليثى كأنما يستدعيه الى القول فاذا هو يرتجل هذين البيتين :

عزت على الندمان حتى أنهــم تخذوا لها كأسا من التفاح
ولدى اتخاذ الكأس منه بمدية لان الحــديد كرامة للراح

وله اللامية المشهورة التى قالها بعد الفتنة العرابية مستعطفا طالبا الصفح عن الجناة :

كل حال لضده يتحول فالزم الصبر إذ عليه المعول
يافؤادى استرح فما الصبر إلا مابه مظهر القضاء تنزل
قدر غالب وسر الخفايا فوق عقل الأريب مهما تكمل
رب ســاع لحتفه وهو ممن ظن بالسعى للعلا يتوصل

إلى أن يقول عن الثائرين

ويح قوم سعوا لإدراك أمر دون إدراكه الجبال تزلزل
ما أضروا عليه إلا أضروا بأناس من نابه أو مغفل

وعلى هذا النمط تكون مواساة المجالس والندماء فى خطوب الثورة العرابية .

ومن أدباء هذه المدرسة التقليدية من جمع بين النوعين نوع أدباء الدواوين ، والندماء ، ومن أشهرهم وأبرعهم محمد عثمان جلال ، فقد كان بثقافته وتعليمه يؤهل نفسه للوظيفة ، وبطبعه وبديهته نديماً محبوباً . ولد « بونا القس » إحدى قرى بنى سويف سنة ١٢٤٥ (١٨٢٩) ودرس فى صغره اللغات بمدرسة الألسن فى حى الأزبكية، ثم التحق بقسم الترجمة الذى أنشأه رفاعه الطهطاوى ، وبعد ذلك انتدبته الحكومة للأعمال الكتابية فى وزاراتها ، ثم استوزره الخديو توفيق ، واتخذه فى نفس الوقت نديماً وسميراً لايفارقه فى رحلاته إلى جهات القطر المصرى .

على أن لمحمد عثمان جلال ميزة على غيره من الندماء ، لأنه كان يمثل الطبع المصرى المرح الذى يجيد النكتة المقبولة التى يفهمها الناس جميعا حضريهم وقرويهم ، ولعل مولده بالريف ونشأته بالقاهرة قد هيأت له تفهم الروح المصرية . ولولا تلك القيود التى فرضتها مدرسة المقلدين على أدبه وإنتاجه وشعره وترجمته لكان أول أديب فكه نقادة فى العصر الحديث ، ولكان لنا منه موليير أو أناتول فرانس أو برنارد شو .

كان يجيد الترجمة وقد أبت عليه مصريته إلا أن يصبغ كل ما يترجمه بصبغة مصرية بحتة ، وقد ترجم ما يوافق طبعه ويلائم ذوقه فاختار ترجمة أمثال لافونتين الشاعر الفرنسى وحكاياته ، وذلك لأنه مجبول على ضرب الأمثال وسرد الحكايات كما ترجم بعض روايات موليير الشاعر الفرنسى المسرحى الهزلى المعروف ، وذلك لأنه مطبوع على النقد والتهكم والهزل .

قال أحمد شفيق باشا فى كتابه « مذكراتى فى نصف قرن » وهو يذكره عند إلمامه بطلائع النهضة الفكرية :

« ترجم أساطير لافونتين وهى مجموعة قصص خرافية صيغت على لسان الطير والحيوان تتضمن عبراً ومواعظ بالغة . وقد أحسن جلال بك اختيار الأمثال العربية التى تقابل هذه المعانى فى اللغة الفرنسية ، وسماها العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ » .

ومما جاء فيها مثل البخيل والدجاجة :

كان البخيل عنده دجاجة تكفيه طول الدهر شر الحاجة
فى كل يوم مر تعطيه العجب وهى تبيض بيضة من الذهب
فظن يوما أن فيها كنزاً وأنه يزاد منه عزا
وشقها نصفين من غفلته إذ هى كالدجاج فى حضرته
ولم يجد كنزاً ولا لقيه بل رمة فى حجرة مرمية
فقال لا شك بأن الطمعا ضيع للانسان ما قد جمعا

وكأنى بعثمان جلال لم يؤثر ترجمة لافونتين ولا مسرحيات مولير استعظاماً للأدب الفرنسى ولكن لأن فيها ما يشبه النكات المصرية والأدب المصرى فكأنه بترجمته هذه يقول : هذه بضاعتنا ردت الينا . أو ليست أمثال لافونتين مقتبسة معظمها من كليلة ودمنة ؟ !

وقد كان له أسلوب سهل فى الترجمة الشعرية وإن كان لا يسمو فى البلاغة ولا يسلم من الخطأ .

وهذا نموذج آخر من ترجمته فى قصته السبع حين شاخ من كتاب العيون اليواقظ

السبع وهو الضيغم المشهور أودت به السنين والشهور
وأعجزته نوبة الشيخوخة وتركت جبهته مسلوخه
ثم انحنى وفارقته الهمة وصارت الأيام مدلهمة
وانحط فى الغابة كل الحطة ونفرته فى الجبين البطة
واستحقرته فى الخلا الرعية وطلب الموت بصفو النية
وكيف لا والفرس اقتفاه أوسعه ضرباً على قفاه
والعجل والذئب على عذابه هذا بقرنيه وذا بنابه
وكل ذا وسبعنا لا ينهر على خروج الصوت ليس يقدر
بل نام للمكتوب والأقدار وفوض الأمر لحكم البارى
إذ نظر الحمار جاء عنده وزاده رفسا وأدمى خده

فقال تم الذل والعذاب فوا فضيحتاه يا أصحاب
الموت أولى من أذى الحمار والنار خير من حلول العار

ومن هذه القطعة وسابقتها ندرك تلك الملكة التى وهبها عثمان جلال فى النظم وسهولته وهى تنبىء عن استعداد عظيم للرواية والقصة على الرغم مما بها من ضعف فى الصياغة .

وقد كانت هذه الملكة تنزع به الى نظم الزجل غالباً والشعر أحياناً فى وصف ما يقع له من النوادر والفكاهات والرياضات ، ومن ذلك زجله فى الأزهار ، وزجله فى المأكولات ، وأقوم منهما كليهما روايته المسرحية عن المخدومين والخدم وهى باكورة فى وضع الروايات المصرية وتمثيل البيت المصرى والمجتمع الوطنى

ومن ميله للرواية والقصة ترجم رواية « ترتوف » لموليير ومصرها حتى فى اسمها فسماها « الشيخ متلوف » ، وقد مثلت مراراً .

ومن زجله الظريف بينان ارتجلهما أمام رياض باشا يشكو تأخره عن أقرانه الموظفين فى الترقية :

الخير عم الناس وفاض ما حسد الا واستكفى
الا أنا ياسيدى رياض « وقعت من قعر القفة »

ومن فكاهاته أنه كان مدعوا فى دار محمد بك سكر الكتبى وأحد أدباء عصره للطعام مع بعض الأصدقاء ، فاستبطأوه وعندئذ دخل رب الدار الى الحريم ، وبينما هو كذلك إذ سمع الضيوف دقا بالهاون فتساءل بعضهم : ماذا ؟ ألا يزالون يهيئون الطعام ؟ فأجاب محمد بك عثمان جلال : —

إنهم يكسرون راس سكر .

ومما يروى عن سوقه الأمثال فى نكاته : أن « رشمه » نفيسة من التى تجعل لحمير الركوب الفارهة ضاعت من مخازن قصر عابدين ، فدخل الموكل بحفظها على مترجمى الديوان وهو صاخب وأخذ يصيح : أفى قصر الأمير يجترئون على السرقة ؟ وكان جلال بك فى ديوان الترجمة يومئذ فقال له مازحا : لاتحزن ياباشا . تبقى فى بقك وتقسم لغيرك ! .

وربما قيل: كيف نسلك من له مثل هذه الروح، وهذا التجديد فى الغرض ضمن أدباء المدرسة التقليدية، ولكن القدماء فى عصره كانوا يشاركونه فى هذه الروح المرحة ويجتهدون أن يدخلوا السرور على من يحيط بهم من العلية والأصحاب، ونوادر السيد على الليثى مشهورة وفكاهاته معروفة، وربما لم يكن له طبع عثمان جلال، ولكنهما يهدفان لغرض واحد.

لقد حاول عثمان جلال أن يجدد فغلب على أمره، وظل من تلاميذ المدرسة التقليدية وهاك نموذجا من نثره ندرك به إلى أى مدى كان مدينا للمدرسة القديمة مدرسة السجع والجناس والرموز والتواريخ. لقد ترجم رواية بول، وفرجينى للأديب الفرنسى «دى سان بيير»، ولكن جنت عليه المقامة وأسلوبها فتقيد فيها بالسجع فى كل فقرة وفاصلة من عنوان الرواية إلى كلمة الختام فسماها «الأمانى والمنة فى حديث قبول وورد جنة»، وقال فى تصدير الكتاب: «أخرجته من الطباع الأفرنجية، وجعلته على عوائد الأمة العربية، فمن تصفحه بعين النقد، رأى القد على القد، ومن قاسه بمقياس المقابلة، وطبق آخره وأوله، رأى فذاً قرن بتوأم، وعلم أن من ترجم فقد ترجم» ثم كتبته على ورق الجنة، وسميته قبول وورد جنة لمقارنة مخرج الاسمين، ومطابقته فى لفظه اللغتين».

ونراه غالى فى التصدير فترجم بول بقبول، وفرجينى بورد جنة، ونراه تعسف فى الأسلوب وتقيد بالسجع والمحسنات شأن أدباء مدرسته. وله كتاب «التحفة السنية فى لغتى العرب والفرنسوية» على شكل ألفية ابن مالك.

وممن ينتمى إلى هذه المدرسة بنوعيها، محمود صفوت الساعاتى، وصالح مجدى، والسيد على أبى النصر، والشيخ حسين المرصفى وغيرهم ممن لم يبلغ مبلغهم فى الشهرة والانتاج.

مدرسة المجددين

كان عجبا حقا ألا تظهر فى مصر مدرسة حديثة فى الأدب لعهد اسماعيل بعد تلك البعثات المتوالية التى أرسلت إلى أوربا منذ عهد محمد على، وعادت حاملة كثيرا

من ثقافة الغرب ، وعكفت على ترجمة كثير من الكتب ، مغذية اللغة العربية بشتى الأساليب ، والتعبيرات . ومطلعة على فنون فى الأدب لاعهد لأدبائنا بها من ملاحم وقصص ومسرحيات ، وعلى أغراض فى الأدب لم يخطر لأدباء العرب أن يخوضوا فيها ، ولا سيما الأغراض الاجتماعية والسياسية والخلقية والتربوية .

وكان عجبا حقا ألا تتطور الأساليب وتتحرر من تلك القيود اللفظية التى زادتها ركة وإعجاما ، وتجزل عبارتها بعد ما نشر بمطبعة بولاق وغيرها منذ عهد محمد على من آثار السلف ولا سيما كتب الأدب الرفيع التى تكسب المطلع عليها والمهتم بها متانة فى العبارة وقوة أسر ورشاقة لفظ مع سهولة وسلاسة كالأغانى ، والكامل ، والمثل السائر ، ومقدمة ابن خلدون ، والعقد الفريد ، ونفح الطيب ، وحياة الحيوان وغير ذلك من الكتب القيمة ودواوين كثير من الشعراء المبرزين فى الأدب العربى. وقد غمرت مطبعة الاستانة ومطابع بيروت ، ومطبعة بولاق العالم العربى بهذه الآثار الجليلة .

لاريب أن النفوس كانت مهيأة لتقبل الأغراض الجديدة فى الأدب ، وأن الأذهان كانت معدة لتحطيم تلك القيود اللفظية والمعنوية التى فرضتها عصور الضعف على الأدب العربى وأن كثيرا من الملكات القوية ، والعقول النيرة كانت منتظرة من يفتح لها الطريق ويقودها إلى الجادة حتى تنتج وتثمر وتبتكر ، وتغذى الأدب العربى بالموضوع الطلى ، والأسلوب القوى ، والفكر العبقرى .

ولقد شاء حظ مصر السعيد ، وحظ الأدب العربى المجدود أن ينزل بها فى عصر اسماعيل السيد جمال الدين الافغانى ، وكان أعجوبة عصره ، وقوة محركة عظيمة ، وثورة ملتهبة على التقاليد والضعف والآفات الاجتماعية والخلقية ووجد فى مصر تربة خصبة ، وعقولا مهيئة ونهضة قد خطت خطوات لابأس بها ، فأخذ يوجه ويدبر ويرشد ويرسم خطط الاصلاح فى مختلف نواحى الحياة .

وكان بيته مدرسة يفد اليها عظماء الرجال وأحرار النفوس وخاصة المفكرين والمثقفين ، وكان يتخذ من المقهى مدرسة أخرى يخلق فيها حوله كثير من هؤلاء أمثال عبد الله نديم ، وأبو السعود ، ومحمود سامى البارودى ، وعبد السلام المويلحى

وأخيه ابراهيم المويلحى ، ومن الشباب أمثال : محمّد عبده ، وابراهيم اللقانى ، وسعد زغلول ، وعلى مظهر ، وسليم نقاش ، وأديب اسحق .

فى هذه المدرسة حول مجرى الادب ، ونقل من حال الى حال ، فبعد أن كان عبد الارستقراطية،وخادم الملوك والامراء والاعيان يسبح بحمدهم ويشيد بمجدهم ، ويتزلف لهم ، ويحسن مساوئهم ، ويذم أعداءهم ، أخذ يلتفت إلى عامة الشعب فيطالب بحقوقهم ، ويدافع عن مظالمهم ، ويهاجم من اعتدى عليهم كائنا من كان ، يبين للناس سوء حالهم ومواضع بؤسهم ، ويبصرهم بمن كان سبب فقرهم ، ويحرضهم على الحرية ، والخروج من ظلمات الجهل والذلة والفقر والاستعباد،وألا يخشوا بأس الحاكم فليست قوته إلا بهم ولا غناه إلا منهم ، وأن يلحوا فى طلب حقوقهم المغصوبة وسعادتهم المسلوبة ، فكان أدبا مشرفا على الامراء لاسائلا متملقا للأغنياء .

وها كم مثلا من دروسه التى كانت سببا فى اشعال الثورة الفكرية والادبية قال فى سنة ١٨٧٨ « إنكم معاشر المصريين قد نشأتم فى الاستعباد وربيتم فى حجر الاستبداد ، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم ، وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين ، تسومكم حكوماتكم الحيف والجور ، وتنزل بكم الخسف والذل ، وأنتم صابرون بل راضون ، وتستنزف قوام حياتكم — ومواد غذائكم التى تجمعت بما يتحلب من عرق جباهكم — بالعصا والمقرعة والسوط ، وأنتم معرضون فلو كان فى عروقكم دم فيه كريات حيوية ، وفى رءوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية ، لما رضيتم بهذه المسكنة وهذا الذل - تناوبتكم أيدى الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ، ثم العرب والاكراد والمماليك ، وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه ، وأنتم كالصخرة الملقاة فى الفلاة لاحس لكم ولا صوت .

انظروا أهرام مصر ، وهياكل منفيس، وآثارطيبة ، ومشاهد سيوه ، وحصون دمياط ، فهى شاهدة بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم .

هبوا من غفلتكم ! اصحوا من سكرتكم ! عيشوا كباقى الأمم أحراراً سعداء » .

كان جمال الدين يقول هذا لاتباعه وحواريه ، ويريد منهم أن يكونوا رسلا تنطق بدعوته ، وتنفذ خطته . فجيب اليهم الكتابة ، ورسم لهم طريقتها الصحيحة ، وأوحى إليهم بالمعانى الجديدة التى يكتبونها ، وشجعهم على إنشاء الجرائد ، يكتب فيها ويستكتب لهم من توسم فيه المقدرة . فقد شجع أديب اسحق بعد أن اتصل به اتصالا وثيقا وتلمذ له طويلا على أن ينشىء جريدة اسمها « مصر » ، وكان جمال الدين يرسم له خطة السير فيها ويكتب بنفسه بعض مقالاتها باسم مستعار هو « مظهرين وضاح » ، ثم أوعز إليه أن ينتقل إلى الأسكندرية ، وأن ينشىء جريدة أخرى سماها « التجارة » ، وقد كتب جمال الدين فى هاتين الصحيفتين مقالات تلتهب حماسة ووطنية منها مقال فى الحكومات الشرقية وأنواعها وآخر سماه « روح البيان فى الانجليز والأفغان » ، وكان لهاتين المقالتين أثر بعيد لفت الأنظار إلى جريدتى أديب اسحق ، فلقيا رواجاً كبيراً ، ولكن رياض باشا أغلقهما .

وإذا أردنا أن نعرف سمة هذا الأدب الجديد وطابعه وأسلوبه فلنقرأ فاتحة صحيفة « التنكيت والتبكيت » للسيد عبد الله نديم ، ولنستمع الى رأيه فى الأسلوب الحديث وما يجب أن تكون عليه الكتابة الصحفية ، قال إنه لا يريد منها « أن تكون منمقة بمجازات واستعارات ولا مزخرفة بتورية واستخدام ، ولا مفتخرة بفخامة لفظ وبلاغة عبارة ، ولا معربة عن غزارة علم وتوقد ذكاء ، ولكن أحاديث تعودناها ولغة ألفنا المسامرة بها ، لا تلجىء إلى قاموس الفيروزابادى ، ولا تلزم مراجعة التاريخ ، ولا نظر الجغرافيا ، ولا تضطر لترجمان يعبر عن موضوعها ، ولا شيخ يفسر معانيها وإنما هى فى مجلسك كصاحب يكلمك بما تعلم ، وفى بيتك كخادم يطلب منك ما تقدر عليه ، ونديم يسامرك بما تحب وتهوى » .

هذه كانت طريقة تلك المدرسة الجديدة ، يريدون أن تصل كلماتهم إلى الأسماع وأن يفهمها الناس ، ويتأثروا بها ، لا أن تكون مستغلقة عليهم ، مكبلة بأصفاد من الصنعة والتزويق يخفى معالمها ، ويبهم معانيها .

وقد بلغ عدد الصحف المصرية التى ظهرت فى عهد اسماعيل ، ولاسيما فى آخر أيامه عشرين صحيفة وقد أطلق لها حرية الكتابة وكان يميل الى هذه الحرية فى أخريات

حكمه حين اصطدم بالمطامع الأوربية ، وكانت هذه الصحف تندد بسياسة الأوربيين وجشعهم ونواياهم ، وتشعر الناس بتدخلهم السياسى وتحمل عليهم حملات شديدة قوية فكان ذلك يروق اسماعيل . ولكن لم يكن يرضى بحال أن توجه إليه هذه الصحف نقداً ما ، ومن تجرأ على ذلك كان له الويل والثبور كما حدث لصاحب الاهرام حين أشار إلى مال صرف من الخزينة ، ولم يعلم مصيره ، وكاد اسماعيل يبطش به وبجريدته لولا أن ارتمى فى أحضان فرنسا فحمته .

وكما كان جمال الدين مصدر هذه الحركة وموجهها ، كان أحمد فارس الشدياق صاحب الجوائب التى صدرت فى الاستانة ١٨٦٠ نموذجا للكاتب الصحفى ، وجريدته قدوة تحتذى ، لأن صاحبها افتن فى تحريرها وتخيير موضوعاتها فجمعت بين اللغة والسياسة والادب ، وشتى ضروبه وأبوابه بما فى ذلك القصائد البليغة لكبار شعراء العربية ، فأقبل الناس عليها حتى لم تدع بلداً عربيا إلا دخلته ووجدت فيه رواجا . فكانت هذه الجريدة أكبر مشجع للمصريين على متابعة الجهد الصحفى ، وقد وجدوا من اسماعيل باشا ميلا للأدب والعلم وتقدير الجهود الوطنية ولا سيما تلك التى تحارب الأوربيين .

لم يكن هم هذه المدرسة الحديثة قاصراً على الكتابة بل التفتوا التفاتة لها خطرها فى الاصلاح السياسى والاجتماعى ، وهى أن من أهم أسباب غفلة الشرق ضعف الخطابة وانحصارها تقريبا فى خطب المساجد ، وهى خطب لا تمس الحياة الواقعة بحال من الاحوال وإنما هى عبارات دينية محفوظة ، ومعان متكررة مألوفة ، خالية من الحياة والشعور لا تحرك قلبا ، ولا تهز وجدانا ، ولا تنير سبيلا .

فكتب السيد عبد الله نديم مقالا قويا فى قيمة الخطابة وأثرها فى تاريخ الاسلام ودعا الى أن يحضر خطب المساجد أعرف الناس بشئون الحياة ، وأقدرهم على التأثير وأن تشرح هذه الخطب الموقف الحاضر فى وضوح ، وتبين الاخطار المحيطة بالأمة فى جلاء وأن يتبرع القادرون بقدر من المال يخصص لهذا الغرض ، ويتفقوا مع فى ديوان الاوقاف ليسمح بالقاء هذه الخطب فى المساجد ، ثم تطبع وتنشر فى أنحاء البلاد يصل صداها الى كل قرية وبلدة ، وأعلن استعداده للاشتراك فى إعدادها ،

ووضع خطبة نموذجية توضح غرضه .

ومما قاله فى هذه المقالة «ألسن الخطباء تحيى وتميت . حكمة اذا عقلت معناها وقفت على سر الخطابة وحكمة حدوثها ، وعلمت أنها للعقول بمنزلة الغذاء للبدن ، وكانت الخطابة فى الاعصر الخالية غير معلومة إلا فى أمتى العرب واليونان . فكانت ساحتها فى جزيرة العرب عكاظا ، ومنابرها ظهور الابل ، وهذه الساحة كانت معرضا للافكار يجتمع فيه الخطباء والبلغاء والشعراء ، وأمم كثيرة من المجاورة للجزيرة فيرقى الخطيب ظهر ناقته ويشير بطرف ردائه ويثر على الاسماع دررا وبدائع ثم يباريه آخر ، ويعارضه غيره فتتضارب الافكار وتتنبه الاذهان ، وتحيا الهمم ، وتتحرك الدماء ويرجع كبار القبائل وأمراؤها الى ما يشير إليه الخطيب إن صلحا وإن حربا .

هذا هو مبلغ اهتمام هذه المدرسة الحديثة بالنثر الفنى كتابة وخطابة . فقد جددت فى الموضوعات وفى الاساليب وأخذت تجعل من اللغة عاملا فعالا فى الاصلاح وصورة صحيحة لشعور الامة وآمالها وأحزانها . وكان بودى أن أعرض لاثر هذه المدرسة فى الشعر الا أن ذلك ليس من غرضى فى هذه المحاضرة ولا يتسع له الوقت وحسبنا أن نعلم أن البارودى كان من آثار هذه المدرسة وان عمل فى اخراجه وبلوغه هذه القمة العالية عوامل أخرى

ومن خير من تأثر بهذه المدرسة الحديثة نابغة عصره ، وأعجوبة زمانه فى الذكاء وقوة العارضة ، وطلاقة اللسان ، وبليغ الحجة ، وسرعة البديهة ، ومن ملك ناصية البيان كتابة وخطابة ، وعارض فحول الشعراء جزالة وقوة وضخامة معنى ، السيد عبد الله نديم . ولد فى سنة ١٢٦١ هـ ١٨٤٥ م من أب فقير كان أول أمره بمديرية الشرقية ثم رحل الى الاسكندرية ، وعمل فيها نجاراً للسفن بدار الصنعة ، ثم لم يعجبه هذا العمل ، فاتخذ مخبزاً صغيراً يصنع فيه الخبز ويبيعه ويحصل من ذلك على الكفاف من العيش . وقد أرسل مصباح ابنه عبد الله إلى المكتب فتعلم ما يتعلمه الصبية فى عهده ، ولكنه أظهر نبوغا وذكاء ورغبة فى مواصلة الدرس فأرسله الى مسجد ابراهيم باشا ، وهو صورة مصغرة من الأزهر ، ولكنه كره حياته ودروسه

وجفافها وحبب اليه نوع آخر من الدراسة هو الأدب، فكان يغشى مجالسه ويسمع شعر الشاعرين وزجل الزجالين ونوادر المتماجنين وقصائد الراوين فيصغى الى كل ذلك فى نهم كأنه كله آذان ، ويدرك من غير وعى أن هذا بابه وهذا فنه وأنه انما خلق لذلك لا للنحو والصرف .

وقد منح حافظة لاقطة . وقدرة على التقليد فائقة فأخذ يحاكى بعد ما اختزن ويغنى بعد ما سمع فأحيانا يوفق وأحياناً يخفق .

والى جانب ذلك تعلم درساً فى منتهى القيمة ، وذلك أنه نشأ فى صميم الأحياء الشعبية، وكان له حس مرهف ويقظة نفس ، فأحاط بلغة الشعب وعاداته وأمثاله ونوادره ، ووجوه المعاملات وصنوف التصرفات ونقش كل ذلك فى لوحات واضحة فى نفسه الحساسة وكان له أكبر أثر فى أدبه . ولكن أباه ضاق به ذرعا لأن هذه الصنعة لن تجلب له رزقا فطرده ، واتجه اتجاها غريباً إذ ابتدأ يتعلم فن الاشارات البرقية ويتكسب منه ونقل الى القاهرة فى مكتب القصر العالى حيث تسكن والدة الخديو اسماعيل ، وعاد اليه فى القاهرة حنينه الى مجالس الأدب فاتصل بمجلس محمود سامى البارودى، وهو مجلس عامر ففيه أدب قديم يعرض ، وأدب حديث ينشد ، وعرض للمعنى الواحد صيغ صياغة مختلفة ، ونقد قيم لهذا ولذاك يتخلله نوادر فكهة ، وأحاديث الأدب الحلوة . وتعرف فى هذا المجلس على كثير من أدباء عصره أمثال البارودى ، وأبى النصر ، والساعاتى . ولكنه غلط غلطة فى عمله بالقصر العالى فطرده خليل أغا المتحكم فى مصير لذياك العهد فسدت فى وجهه أبواب الرزق وتحاشى الناس مخالطته .

وقد جربت له بعد ذلك تجارب كثيرة فمرة معلم صبية ، وآونة يشتغل بالتجارة ولكن تجارته قد بارت . وتنقل فى كثير من أنحاء القطر ، ثم اتصل بشاهين باشا كنج بطنطا وكان رجلا محبا للأدب له ذوق رقيق ، وظرف ووجد فى عبد الله نديم متعته . وقد كاد عبد الله نديم أن يكون من مدرسة الندماء حتى ذلك العهد يعيش بأدبه ، ويمدح كل من يعطف عليه ، ويدخل السرور على أولياء نعمته بالملح والطرف والنكات . وقد حدث له فى هذه الحقبة أن كان جالسا ذات يوم فى قهوة

أيام المولد الاحمدى ومعه طائفة من الأدباء منهم السيد على أبو النصر والشيخ احمد أبو الفرج الدمنهورى الأديب الماجن فطلع عليهم اثنان من الادباتية وهم من تلك الطائفة المعروفة التى كادت تنقرض أن لم تكن قد انقرضت فعلا ، وقد مرا على الجاضرين حتى وصلا الى السيد عبد الله نديم فقال أحدهما :

انعم بقرشك ياجندى والا كسنا أمال يا افندى
لحسن أنا وحياتك عندى بقى لى شهرين طول جمان

فأجابه عبد الله نديم على البديهة :

أما الفلوس أنا مديشى ، وانت تقول لى ما مشيشى
يطلع على حشيشى أقوم أمبص لك لودان

فرد الادباتى ، وزد عبد الله نديم ، وظلا كذلك ساعة حتى هزم الأدباتى وانصرف وأبلغ السيد على أبو النصر هذه الحادثة الى شاهين باشا كنج فأقام حفلا كبيرا دعا فيه كبار الادباتية ليباروا السيد عبد الله نديم ، وقد باراهم وغلبهم جميعا .

وكما كان بارعا فى هذا النوع فقد كان يجيد النظم فى الشعر الجيد الفصيح . وفى أحد مجالس شاهين باشا كنج تحامل عليه كثير من الادباء فاقترح عليه بعضهم إنشاء قصيدة يعارض بها دالية المتنبى المشهورة التى مطلعها :

أقل فعالى بله أكثره مجد وذا الجد فيه نلت أو لم أنل جد

وقال إنه لايتأتى لشاعر أن يعارض قوله فى القصيدة :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له ماءن صداقته بد

فغضب عبد الله نديم وأمسك القلم وأنشأ قصيدة دالية أولها :

سيوف الثنا تصدا ومقولى الغمد ومن سار فى نصرى تكفله الحمد

الى أن قال معارضا ذلك البيت الذى ظنه المتنبى معجزا .

ومن عجب الايام شهم له حجا يعارضه غر ويفحمه وغد
ومن غرر الاخلاق أن تهدر الدما لتحفظ أعراض تكفلها المجد

وأردفهما بخمسة أبيات على شاكلتهما

وفى هذه القصة وسابقتها بيان لفهم المدرسة القديمة للشعر والفصاحة فهو عندهم مغالبة لسانية ومساجلة كلامية ، ولباقة منطق وسرعة جواب وارتجال

وقد كان عبد الله نديم من تلاميذ تلك المدرسة القديمة حتى اتصل بالسيد جمال الدين الافغانى فظهر أسلوبه المرسل الذى سمعتم شيئا منه وقد كان يؤثر هذا الاسلوب ويتحرر من كل قيود المحسنات فى كتابته الصحفية بيد أنه ظل متمسكا بالاسلوب المقامى فى رسائله . ومن بدائعه فى العدد الاول من (التنكيت والتبكيت) وقد أدرك أن القصة أحب أنواع الادب الى النفوس . فلجأ اليها واتخذها أداة طيعة لأغراضه الحديثة ، تلك القصة الرمزية التى عنوانها « مجلس طبى لمصاب بالافرنجى » وهى قصة شاب صحيح البنية قوى الاعصاب جميل الصورة ، لطيف الشكل ، فى رقة ألفاظ وعذوبة كلام ، وفى عزة ومنعة ، لايشاركه فيها مشارك ، يلتف حوله أهله يعززونه ويؤازونه حتى لاتمتد اليه يد عدو ولا حيل محتال - وبينما هو فى ذلك تسلل اليه أحد الماكرين يتظاهر بالصلاح والتقوى ، ويضمر الختل والغدر ، فأسلمه أهله اليه انخداعا به . فعرضه هذا الماكر على الاسواق يريه من الغوانى من تعارض الشمس بحسنها ، وتكسف البدر بنورها ، فمانع حينا ، ولكنه رأى أهل بيته قد وقعوا فى مثل هذه الغواية ، وانغمسوا فى مثل هذه الضلالة فسار سيرهم ، وترك النفار ، والإباء ، وسار فى الطريق الذى رسمه المنافق الخادع ، فما سار فيه حتى أصيب بالداء الافرنجى (الزهرى) فاصفر وجهه ، وارتخت أعضاؤه ، وذهبت بهجته ، وغارت عيناه ، وتشوه وجهه ، وتبدلت محاسنه بقبائح تنفر منها الطباع ، وتمكن الداء منه وسرى فى دمه وعروقه ، فصار يقلب طرفه لعله يجد من قومه من ينقذه من مرضه . الخ

وهذه قصة رمزية تنقد تدخل الدول الأجنبية من مراقبة ثنائية ، وإنشاء صندوق الدين وغير ذلك ، ولقد كان بارعاً فى توريته بكلمة « الداء الافرنجى »

هذا أيها السادة نموذج من أسلوب القصص المرسل وهو نموذج طيب للمدرسة الجديدة على أن له بجانب ذلك أسلوباً آخر شأن كثير من كتاب جيله ، لاهؤلاء الكتاب الذى تربوا ابتداء على يد جمال الدين أمثال محمد عبده ، وابراهيم المويلحى

وسعد زغلول ، وابراهيم اللقانى ، وأديب اسحق . فهؤلاء أسلوبهم جديد وغرضهم جديد وموضوعاتهم جديدة، وإليكم نموذجاً قصيراً من أسلوبه المقامى وقد تعمد أن يقتبس الفاصلة الثانية من آى الذكر الحكيم .

« لاحول ولا قوة إلا بالله» اشتبه المراقب باللاه ، واستبدل الحلو بالمر وقدم الرقيق على الحر ، وبيع الدر بالخزف ، والخز بالحشف ، وأظهر كل لئيم كبره ، إن فى ذلك لعبرة ، سمعاً سمعا فالوشاة إن سعوا لا يفعلوا ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فكيف تشترون منهم القار فى صفة العنبر ، وقد بدت البغضاء من أفواههم وماتخفى صدورهم أكبر ، وكيف تسمع الأحباب لمن نهى منهم وزجر ، ولقد جاءهم من الأنباء مافيه مزدجر . . . الخ

على أنه كان يؤثر الترسل ولا يلجأ الى هذا الأسلوب المتكلف إلا نادرا ، ولكى يظهر براعته وتفوقه على أدباء المدرسة التقليدية .

ثم إنه كان فيما بعد خطيب الثورة العرابية الذى أجج نارها وأشبعها ضراما ، وكان يفجر الكلام تفجيراً فيبلغ من النفوس مايبلغ السحر ويحفزها على العمل والهياج والقتال ، متوثراً فى كل ذلك بتعاليم جمال الدين ، وبما كان فيه من استعداد عظيم ، وموهبة لسانية فائقة جعلت قادة الثورة يقدمونه فى المحافل . كان جمال الدين يخطب الناس وكأنه يضربهم بالسياط ، وكان النديم يخطب الناس فيقابل بالابتسام يضحك لهم ويضحك منهم ويصلح شأنهم ، ويقبل قوله فى فرح ومرح ، ولذلك كان أسف الناس عليه أعظم من أسفهم على جمال الدين حين أبعد كلاهما عن مصر الى الاستانة ، لأن سؤدد جمال الدين فى الخاصة وسؤدد النديم فى العامة .

وكم كنت أود أن أعرض نماذج أخرى من هذه المدرسة الحديثة التى مهدت لجيلنا الحاضر سبيل الكتابة والترسل ، ووجهت أنظارنا إلى آفاق جديدة من الأدب ولكن المقام لن يتسع لأكثر من هذا ، وأرجو أن أكون قد أعطيت فى هذه الصور السريعة العاجلة فكرة واضحة عن البيان فى عصر اسماعيل ، وألا أكون قد أثقلت عليكم . ؟

عمر الدسوقى
المدرس بمعهد التربية للمعلمات